

مظاهر العظمة والطموح في شعر المتنبي

لنا من قبل مستفيدين في الأثناء بعدد من الشروح الموضوعه عليه . لقد سبقتنا دراسات عديدة يعتقد في اغلبها اصحابها انهم وضحوا جوانب كانت غامضة في حياة المتنبي وعصره والقوا لأول مرة اضواء كاشفة عن ملامح شاعريته وخصائص شعره . وبدون شك نعتبرها كلها محاولات طيبة في طريق المعرفة بالتنبي ، غير انه ليس ما يمنع من مناقشتها والاختلاف معها في بعض النقاط مع الافراز لها بالفضل والاسبقية فيما تنفق فيه الانظار او توارد حوله الخواطر او يولده الحس النقدي المرفه لدى اصحابها .

ان هدفنا من هذه الدراسة ليس محمدا من البداية . فليس في نيتنا مطلقا ان نخرج بصورة تكرر المتنبي النهودج في الذهن العربي او نزيغ الصورة الرائعة لبطولته وانفته في الوجدان العربي . لكن طريقنا في هذا البحث احتجنا الى ان نحددنا من البداية . علا هي الاخذ كيفما اتفق من شعره لتحفيق بعض اخباره او تبرير افعال احد من العلماء والنقاد فيه ؟ ولا هي تسليط افهام الرواة والخباريين على شعره لبيان معنى من معانيه او دافع من دوافعه . وانما حرصنا في الاول على تحصيل صورة عامة عن شعره من خلال فراءة مستأنية لديوانه ، وكذلك على تكوين نظرة شاملة عما آلت اليه البيئة في عصره من تطور وتغيير وما اصبح يخضع له الشاعر عموما في حياته العامة او حياته الشعرية من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ، مع الاحتفاظ بعنصر آخر مهم جدا ، ركزنا عليه اكثر للملاحظة وتفسير الظواهر العامة والتميزة من شعره وسلوكه هو عنصر مفهوم الشعر ، مفهومه في العصر العباسي اي لدى النقاد العرب حتى ذلك العصر ، ومفهومه لدى المتنبي بالذات . لاننا نعتقد ان الصورة التي كانت للمتنبي عن حقيقة الشعر واهدافه واغراضه واساليبه هي المفتاح الذهبي لحل كثير من مشكلات شعره وشخصيته .

وبذلك يمكن ان تسلط الدراسة الادبية من كل اعتساف في الفهم والتقييم يحول دون الرؤية الحقيقية والمجردة لصورة الشاعر وابعاد شعره . وهو الهدف من هذه الدراسة في الواقع ، ويبقى من حقنا بعد ذلك ان نحكم للمتنبي او عليه بما شئنا من المقاييس الادبية والانسانية المعاصرة .

ما هي ابعاد الطموح الذي يعبر عنه المتنبي وابعاد اعتداده بنفسه؟ وما هي الدواعي الظاهرة والخفية لذلك وما ورد في شعره من تعدد

يسود شعر المتنبي كله تقريبا حول العظمة والطموح . وهاتان الصفتان في نفس ابي الطيب وفي شعره هما عنوان شاعرنا العظيم ورمز خلوده ، وهما سر ما يلقي شعره من روعة وتأثير في النفوس الى اليوم . ولعله انما ملا الدنيا وشغل الناس بما صورته من ذلك في ديوانه وبما اوتيته من عبقرية في فنه ، حتى لا يكاد يعرف الادب العربي شعرا في الاعتداد بالنفس وعلو الهمة ابلغ ولا اروع من شعر ابي الطيب المتنبي .

ولقد اتصلت العناية بادب ابي الطيب وشعره من ايام ابن جني معاصره وشارح ديوانه الاول الى يومنا هذا . ولا شك ان ما كتب عنه حتى الان من دراسات وبحوث ومقالات يحسده عليها - وهو الشاعر المحسد طول حياته - كثير غيره من كبار الشعراء . ولقد تالف من ذلك كله ومن شروح ديوانه مكتبة ضخمة تفي في الحقيقة باكثر ما يرغب فيه الباحث من مصادر وراجع عن المتنبي وشعره .

غير ان أدوات البحث قد تطورت تطورا مطردا بعد تلك الدراسات الرائدة في العصر الحديث عن المتنبي ، واصبح الباحث المعاصر في العلوم الانسانية يرغب ، مثل زميله في العلوم الطبيعية ، في ان يستعين بالكمبيوتر او النظمة لدراسة المتنبي او غيره من الشخصيات ، وبعبارة اصح يرغب في ان يستخدم هذه الآلة لتصنيف معلوماته عن الموضوع وتحليلها وفرزها وفق ما تتطلبه افراض الدراسات المتقنيات الوقت . وفي ذلك ضمان اكبر للدقة والجدوى في عمله وريح للوقت لفائدة الملاحظة والتفكير .

ويوم نرى بعض المراكز او الهيئات العلمية تعني باستخدام الآلة الالكترونية لاستيماب كل الاخبار المفرقة من المصادر عن الشاعر وشعره وما كتب عليه من شروح ومختلف ما كان للقدامى والمحدثين من آراء عن عبقريته وفنه ، يومئذ تكون قد فتحنا للدارسين فتحا جديدا في مجال فهم المتنبي وتقييم شعره . لكن اين نحن الآن من ذلك ، وليس بين ايدينا سوى فهرس بسيط للقوافي والاشعار ملحق بديوانه ، وما اخباره فلا تزال مفرقة في بطون الكتب ، لم يجمعها حنى الآن كتاب جمعا تاما منظما ؟

ولو كانت لدينا ملكة حماد الراوية في الحفظ او خلف الاحمر او واحد من نقادنا القدامى لما احتجنا الى ذاكرة آلية تساعدنا على فرزنا من شعر المتنبي ، وربما قد تحتاج اليها مع ذلك لنحقق اقصى ما يتطلبه البحث العلمي من تحر ودقة . فلم نجد بدا في هذه الدراسة التي حددتها المناسبة من المضي على الطريقة التقليدية فرجعنا الى ديوان المتنبي لقراءته فراءة كاملة لم تتح

صارخ للقيم والناس والاشياء ؟ وما هي حقيقة ما يصوره الشاعر من ذلك في شعره بما في نفسه وسلوكه ؟ وما موقع ذلك الشعر من النفس العربية عموماً ؟ واخيراً ما هو مدى تأثيره في الانسان العربي اليوم واهميته في تشكيل حاضره وصنع مستقبله ؟

ونحن نقدر مبدئياً ان الطموح والعظمة ظاهرتان نفسيتان واجتماعيتان متداخلتان بشدة في كيان الفرد . وهما اساسا لا يعنوان غريزة حب الذات او تأكيد الذات لدى الانسان ، وهي من الفرائز العامة في البشر بحسب ما يؤكد قانون تنازع البقاء والبقاء الافضل . ومن هنا فالعلاقة بين الاحساس بالعظمة ونزعة الطموح علاقة تكاملية ، وتستتبع حتماً الواحدة منهما الاخرى .

والملاحظ ان الشعور بالعظمة وما يستتبعه من طموح وتطلع للمجد لا يطفو على سطح الفرد الا اذا صادف صاحبه مناخا ملائماً للتعبير عن ذاته بحرية وتحلل ، وبالعكس فقد ينطلق هذا الشعور المزدوج من اغوار الذات فجأة نتيجة كبت وحرمان طويلين .

وقد تشكل هذه الظاهرة على اية حال حالة مرضية لدى الفرد خصوصاً اذا كان حجمه الاجتماعي ومؤهلته والظروف المحيطة به لا تسمح له بتجسيم شيء من طموحاته البعيدة في الواقع العملي ، ويعجز معها على فرض احترامه في نفوس الاخرين .

وبدون ان نطنب في تحليل شيء من انواع العقد والامراض النفسية ودوافعها وعوارضها لدى الفرد وما الى ذلك ، مما هو موضوع مؤلفات متخصصة ، نلفت النظر الى ان العبقرية بجميع صورها لا تخرج في نظر عامة علماء النفس عن كونها حالة مرض او شذوذ، قد تختلف تازماً او قد تختلف حدة وضعفاً . وقد تسبب انفصاما في الشخصية . والملاحظ مع ذلك انه بقدر ما يستطيع الفنان التنفيس عما يتحمل في داخله من اوار العبقرية والابداع بقدر ما يوفق الى حفظ توازنه النفسي والصحي ، وبالتالي بقدر ما يحقق ذاته في الخارج .

فالن ذلك مجال طبيعي وامون في الغالب لتحقيق نزعات الفرد في اشكال مختلفة . والفن والحلم صنوان ، كلاهما عالم فسيح لاطلاق النزعات الفردية الكامنة في النفس . بيد ان الفرق بينهما هو ان الفنان يقوم بعمله واعياً ومقيداً في ذلك ببعض القيود . والفرق الاخر هو ان الفنان لا يستشعر بعد تحقيق عمله الفني الا بالانشراح والراحة ولذة اصابة الهدف ، بينما المستيقظ من حلمه يخرج منه كالمطروود من الجنة ويظل لا يتنمي غير ان يعاوده ذلك الحلم اللذيذ او يعود اليه .

ولا يخرج التنبي عن حالة فنان عظيم منحه الشعر فرصة التعبير بقوة عن دخائل نفسه واحساسه ازاء الناس والحياة . وقد تكون صاحبه في حياته اعراض مرضية نفسية نتيجة ما يحمله من هموم نفسه او من هموم ما يعبر عنه . ولا نجد من ذلك ما تدل عليه اخباره واشعاره ، اللهم حالة نحول لازمته وخبر تلك الحمى التي اصننته حين كان في اوج ازمته بمصر ، مع ما عرف عنه من حدة وقلق في الطبع .

ثم ان الشعر عامة اوسع مجالاً للتعبير عن عواطف صاحبه، بل لقد كان القدماء يعتقدون ان الشعر هو فن القول الوحيد الذي للشاعر فيه مخاطبة الملك باسمه مجرداً وباسم امه وبكاف الخطاب للشاعر فيه الافتخار بنفسه امامه . وربما بالغ بعض الشعراء او تسامح بعض الممدوحين اكثر من ذلك للشاعر .

ان كل ما تثيره حياة المتنبي وشعره من مشاكل وتساؤلات في وجه الدارسين يمكن ان تعيننا هنا ، غير ان ابرز ما يهمنا من ذلك القول في نسبه وبيته ، وكذلك القول حول تنبؤه ومعتقده وموقفه من البداوة والعرب وغير العرب واخيراً علاقاته بممدوحيه .

ولقد كان للقدماء والمحدثين آراء وظنون مختلفة في كل ذلك ، وكلهم يستند في الغالب الى شيء من شعره وبعض اخباره لتدعيم

رايه او ترجيح ظنه ، غير اننا لاحظنا في بعض التفسيرات شططا وتجاوزا في الفارسة والحكم أحيانا . وربما اوقعت الغفلة عن ملاحظة السياق في عدد من الابيات المشكلة من شعره في غير قليل من الوهم والقلط ، فد يكون سببه ايضا نوع من التصور غير الدقيق لحقيقة الشعر وقضاياه في ذلك العصر .

ففي نسبه يروي الخطيب البغدادي عن علي بن الحسن عن ابيه انه قال : « سالت المتنبي عن نسبه فما اعترف لي به ، وقال : انا رجل اخيط القبائل واطوي البوادي وحدي ، ومتى انتسبت لم آمن ان ياخذني بعض العرب بطائفة بينه وبين القبيلة التي انتسب اليها . وما دمت غير منتسب الى احد فانا اسلم على جميعهم ويخافون لساني » .

فمن هذا الخبر ومن قول المتنبي في بيته المشهور :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسى فخرت لا بجودودي

وبيتته الاخر في رثاء جدته لامة :

ولو لم تكوني بنت اكرم والد لكان اباك الضخم كونك لي اما

تولد ذلك الرأي الشائع الذي يقول بان المتنبي لم يكن ذا نسب نابه ولذلك لم يكن له فخر الا بنفسه .

لكن الا يصعب تصديق هذا الامر قبل التحقق من الخبر وتوضيح المراد من البيتين المعنيين ، ما هي علاقة صاحب الخبر وهو المحسن النوخي بالمتنبي ؟ وهل كان يجهل حقا نسبه حتى يتحرى عنه عند الشاعر نفسه ؟ وانما هل كان جواب التنبي جواب المفاط او الصادق في قوله ؟

كل هذه الاسئلة ستبقى قطعاً بدون جواب . لكن هل كان المتنبي حقا يعتقد ان عدم الانتساب آمن له واسلم من الانتساب الى القبيلة التي ينتمي اليها وهذا ما تشكك فيه ، لان معرفتنا بالتقاليد العربية في الحل وفي السفر في ذلك الحين تجعلنا في ريب مما ورد في ظاهر ذلك الخبر . وهو خبر لا يدل على كل حال على اصل غير مشرف للمتنبي . اما قوله : « لا بقومي شرفت بل شرفوا بي » فهو حقا بيت يدل على لؤم النسب ، لكن الشاعر لم يقتصر عليه بدليل ما قال بعده :

وبهم فخر كل من نطق الفضا د وعود الجاني وفوئ الطريد

وفد تظن لذلك الواحدي فقال في شرحه للبيت الاول : « لو اقتصر المتنبي على هذا البيت لكان الام الناس نسبا ، لكنه قال بعده البيت التالي » . ومع ذلك فما تكون اهمية التنبي وبلافتيه وقدرته على الديج اذا كان قد اعجزه ابراز قومه في حلة من الافتخار والمجد ، وهو الذي لم يعجزه تصوير كافور في سواده بين الملوك كالفرس الادهم في طليعة الجياد ؟!

اما قوله في البيت الاخر عن جدته :

فلو لم تكوني بنت اكرم والد لكان اباك الضخم كونك لي اما

فهو احدي مبالغاته التي قد تصل به الى حد الاحالة في المعنى . وهو على كل حال لا يعني فيه انه غير كريم النسب من جهة امه ، وانما يريد لو قيل لجدته يا ام ابي الطيب لكان ذلك نسبا لها عظيماً . وتقوم طرافة البيت على انه عكس الوضع في النسب، فجعل الاجداد ينتسبون للاحفاد بدل ان ينتسب الاحفاد للاجداد !

وبالاضافة الى ما يقال عن صفة نسب المتنبي التي شككنا في امرها يقال كذلك انه من اسرة وضيعة - وبعضهم يخفف فيقول متواضعة - دون ان نعرف في الحقيقة من امر هذه الاسرة الا ان والده كان سقاء ، ومات فيما رناه بكلمة واحدة . ولكن حتى هذه المعرفة لا تثبت امام النقد . ذلك ان نسبة السقاية الى والده فهمت ربما مع بعض التجاوز من قول من روى في ترجمته ان محلة كندة التي ولد

إذا لم تكن نفس النسيب كاصله
فماذا الذي تفنسي كرام المناصب

اي كرام الاصول .

ولذلك كله لا نستطيع ان نرد مظاهر العظمة والطموح في شعر
المتنبي الى شعور بالتعويض عن خسارة اصله ، ما دام ذلك لا يقوم
عليه دليل . بل ان اختلاف ابي الطيب صغيرا الى كتاب فيه اولاد
اشراف الكوفة ، ووقوعه بمدد ذلك الى خير بادية - بادية اللاذقية -
وحصوله في بيوت العرب ، وادعائه النبوة في الحدائق ، كل ذلك
دلائل تدعو بالعكس لتصحيح الصورة التي اشيعت - خطأ ووهما
كما بينا - عن نسب المتنبي الوضيع واسرته المتواضعة . ويمكن
بالتالي ان نفر أو نرد مركب الفرور وعقدة الاستعلاء التي استحكمت
من نفسه منذ الصغر الى فقد أمه . فلا شك انه اصيب بحالة يتم
مبكر ولدت في نفسه نعمة عارمة ، فنشأ منافرا متابيا مغالبا للصعاب .
كما قد يكون فقدان والده بعيد ذلك قد اثر في تكوينه وعلاقاته
بالناس ونظرتة للحياة ، يضاف الى ذلك ما قد يكون من تعرض
اسرته وهو دون الحلم للهجرة من الكوفة بسبب اغارة القرامطة
عليها . كل ذلك لم يكن بدون شك لير بابي الطيب دون ان يترك
على صفحة وجدانه الشعاري اثارا غائرة توجه تيار مشاعره العاصفة
وتكيف سحائب سلوكه الحاد .

اما ما ورد في اخبار المتنبي عن ادعائه النبوة واتباع قوم في
بادية السماوة له ونزول قرآن عليه وظهور معجزات على يديه - كل
ذلك وما شابهه نعتقد انها اخبار حول لقبه ، وكلها جاءت باخرة
لتفسر سببه تلقبيه بالمتنبي . وهو لقب من الثابت انه حمله منذ
صباه ، ولم يلقبه به كبير من كبراء قومه او عظيم من عظماء عصره ،
ولا تعرف انه تألف منه طول حياته .

وهناك مثل ذلك الخبر الذي يزعم صاحبه فيه انه سأل المتنبي
عن نسبه فكتمه اياه خبر آخر يزعم صاحبه - وهو المحسن النخعي
صاحب الخبر الاول - انه سأل المتنبي عن صحة تنبؤه فاجابه ابو
الطيب جوابا مغالطا ، يقول النخعي : « فاما انا فسألته بالاهواز
سنة ٢٥٤ عند اجتيازه بها ، الى فارس في حديث طويل جرى بيننا
عن معنى المتنبي ، لاني اردت ان اسمع منه هل تنبأ ام لا ؟ فاجابني
بجواب مغالط لي وهو ان قال : هذا شيء كان في الحدائق »

وربط بعض الاخباريين التأخرين وهما بين ما وقع لابي
الطيب وهو بالشام من اعتقال وبين ادعائه النبوة . بينما ابن جني
- وهو معاصر له وعارف بالكثير من احواله - يؤكد ان المتنبي
انهم بالخروج على السلطان . يقول ابو الفتح : « وكان قوم فد وشوا
به الى السلطان في صباه وتكذبوا عليه ، وقالوا له : قد انقاد له
خلق كثير من العرب وقد عزم على اخذ بلدك ، حتى اوحشوه منه
فاعتقله وضيق عليه فكتب اليه يمدحه » .

ومع ذلك فالخروج على السلطان في ذلك الحين لا يكون الا
بدعوة او التهمة باظهار دعوة من الدعوات ، فما تكون دعوة
المتنبي ؟ ان ادعاء النبوة لم يكن من سلاح الخارجين في ذلك العصر .
بل ان اكثر الدعوات في ذلك الوقت شيعية وكانت راتجة خصوصا من
امثال ابي الطيب لكوفيته وعلويته او ميوليه العلوية الثابتة .
وكذلك نستغرب ان تكون دعوى المتنبي - ان كان دعا لنفسه حقا -
هي دعوة النبوة . واذا كان لا بد من اصل لهذه الوشاية وهذا
التكذب عليه ، فلا نجد افضل من حساب ذلك من ما عرف به من
بعد الهمة وسحر القول . وهما امران كانا كافيين ليؤليا على
صاحبهما المقرضين ويغيرا قلب السلطان على كل من يحملهما . فما
ادراك اذا كان صاحبهما من اهل الكوفة وطرا على الشام طروءا ؟
ونستطيع ان نجد في كلام الثعالبي ما يؤكد ظننا . يقول ابو
منصور : « انه بلغ من كبر نفسه وبعد همته انه دعا قوما من

بها المتنبي بالكوفة كان « بها ثلاثة آلاف بيت من بين رواء ونساج » ،
وربما ساعد هذا الفهم كذلك ما روي من شعر في هجاء المتنبي
قاله بعض شائيه . ولكن حتى هذا الشعر نسبة السقاية فيه
ليست لوالد المتنبي بل للمتنبي نفسه ، يقول الضبي وهو احد من
هجاه من شعراء عصره :

الزم مقال الشعر تحظ بقربة وعن النبوة لا ابا لك فانتزح

وقال فيه شاعر اخر :

اي فضل لشاعر يطلب الفضل ل من الناس بكرة وعشيا
عاش حينما يبيع في الكوفة الما و حينما يبيع مراء الميما

وهجاه ابن لکنک البصري لما سمع يقدمه بغداد راجعا من مصر:
لكن بغداد جاء الفيث ساكنها فعالمهم في ففا السقاء تزدهم

ومع ذلك ، فما كل من هجي بشيء الا وكان ما هجي به حقا
فيه . كما قد يكون من هجاه من الشعراء بالسقاية انما يريد
هجاهه بالحلة التي ينتسب اليها والمعروفة بكثرة ما بها من السقائين ،
دون ان يكون والد المتنبي بالضرورة سقاء . على اننا في حاجة
الى ان نتحقق من هذا الرقم الضخم من الرواين والنساجين بمحلة
كندة ووضعية هذه الحرف في هذا الزمن بالكوفة ..

وحتى على فرض ان المتنبي مطالب بقصائد في رثاء والديه والا
شكنا في مكانتهما من نفسه ، فلا بد ان نلاحظ ان الرثاء لا يكون
الا عند الفجيعة لا بعد مرورها . ومعروف ان ابا الطيب فقد والديه
الاثنين مما في صغره ، فكيف نبحت عن رثاء له فيهما ، فضلا عن
كون ديوانه لم يحتفظ لاسباب فنيية في الغالب الا بقليل مما فاله في
صباه ؟ ونحن لا نفر قصيدته اليمية الرائعة التي قالها في رثاء
جدته بكونه كان مدينا لها بالكفالة دون ابويه - كما قيل فحسب
- بل الغالب في تقديرنا ان يكون قد قالها وخلدت في ديوانه لانه كان
وقتها شاعرا عظيما ومن الطبيعي ان تجيء تلك القصيدة في مستوى
الجودة التي بلغتها سائر قصائده . ومع ذلك فهذه القصيدة غريبة كل
الغربة . فهي ليست خالصة للرثاء . اذ يجري المتنبي كل ابياتها
تقريبا في مدح نفسه ، ولا تكاد نرى فيها شيئا من تعديد فضائل
الميت كما هو المهود في قصائد الرثاء . اللهم ما يؤكد عليه
الشاعر من تعلقها الشديد بحفيديها واعتزازها بالبالغ به ، وحتى
ذلك ، فانه يخدم فرض المدح اكثر من الرثاء .

اننا اميل الى ان نرى هذه القصة التي حيكت حول نسب المتنبي
واسرته وتصويرها في صورة لا تبحت الشاعر على الفخر بهما انما
نسجها خيال بعض الاخباريين والشراح من خيوط واهية في الاصل .
وذلك للتفخيم من صورة المتنبي وتفسير جوانب من نبوغه وشعره .

ونرى ان تلك القصة اصيحت تخدم ذلك الغرض في نفوس
الاجيال عن طريق امرين مهمين : عن طريق المقابلة والتناقض بين ما
كان عليه المتنبي في اصله وبين ما اكتسبه من مجد لنفسه ، والامر
الثاني هو انها تعطي تفسيرا نفسيا مقريا عن طريق عقدة التعويض
لتعليل ظاهرتي الطموح والعظمة اللتين طفتا على شعره وجاءتا باشكال
مبالغ فيها كثيرا .

ودون ان نخدش في هذه الصورة غير التاريخية مع ذلك نريد ان
نلاحظ ان قضية النسب في عصر المتنبي لم تبق بنفس الحدة التي
كانت عليها قبل عصره ، وربما بمدة طويلة ، فلم يعد هناك اثر
يذكر في الشعر لذلك التلاحى بالنسب الذي نعرفه في الجاهلية
وحتى الى عصر الدولة الاموية . كما اننا نريد ان نلاحظ كذلك
ان المنطق الاجتماعي في ذلك العصر يقضي باعتبار المرء صورة لاصله
- على الاقل كما يعتقد في نفسه - ان كان اصله خيرا ففعله
حميد ، وان كان العكس فالعكس . ونجد للمتنبي نفسه تعبيرا عن هذا
الفهم السائد لعلاقة الفرد باصله في قوله من قصيدة يمدح بها
ابا القاسم طاهر بن الحسين العلوي :

رائشي نبه ، على الحدائة في سنه والفضاضة من عوده ، وحين
كاد يتم امر دعوته، تادى خبره الى والي البلدة ، ورفع اليه ما هم
به من الخروج ، فأمر بحبسهم وتقييده « ثم يقول بعد ذلك : « يحكي
انه تنبأ في صباه ، وفتن شزيمة بقوة أدبه وحسن كلامه ». ولا يتحدث
ابو القاسم الاصفهاني الا عن فضول نيز به فنهى خبره الى امير
بعض اطراف باديه اللاذبية فحبسه .

إبل نحن ننكر ان تكون دعوى النبوة واردة في حبسه ، لا مبرر
على الاقل ، الاول هو انه تيس في ما كتب به من شعر يستعطف
فيه الوالي الذي سجنه ذكر لادعاء نبوة او شبهها بل نرى الشاعر
ينصل في مما رمي به من تهمة الخروج عليه بل بية الخروج عليه
فحسب .

والامر الثاني هو انه من المستبعد ، وهو في محل انهمة بدعوى
النبوة ان يشبه حاله من جديد بقوم صالح ونمود . وذلك في قوله :
وفي جود كفيك ما جدت لي بنفسي ولو كنت أشقى نمود

والطريف ان المتنبي بعد ان تشبه هنا نفسه بعاقب ناه صالح
اشقى قوم نمود يعكس الآية في بيته المشهور :

انا نسي امه بداركها الله غريب كصالح في نمود

لكننا كذلك نخالف من يقول ان لبعيه بالمتنبي كان بسبب هذا
البيت ، مع ان هذا الرأي ينسب لابن جني . لاننا قد رأينا ان ابا
الطيب لم يرو عنه انه بين لاحد معنى لقبه . ولان ظاهرة التمثل
بالانبياء نفسها كثيرة التردد في شعره بشكل غريب . وربما الاصح
ان نفسرها بكونها نتيجة لهذا اللقب لا سببا له .

ومن هنا رأينا في القضية المتنبي والنبوة بانه لم يكن هناك
ادعاء حقيقي للنبوة من قبل المتنبي وانما هي محاولات مختلفة لتفسير
معنى لقبه . ورأينا ان تلقيه بالمتنبي كان حقيقة في الحدائة اي على
معنى صباه الاول وهو في الكوفة وبين اترابه وفي كنف اهله ، فبل
ان ينتقل الى الشام او غيرها ، وربما كان تلقيه بالمتنبي لاول ما
اظهره الله سحر الشعر على لسانه . وربما يكون انما لقب بذلك
تيمنا وتبركا بالرسول لا ادعاء او تطاولا على مقامه صلى الله عليه
وسلم او دعوته السامية .

ثم ما رأيك في حدث تنزل عليه ملك الشعر او شيطان الشعر
في قوم تعرف موقع مكانة الشعراء من نفوسهم ، حتى لقد تغلخ في
اذهانهم واذهان اجدادهم خاصة ان كل شاعر نبي في قومه الا ان
يكون غير ذي دعوة ، وكل نبي شاعر حتى يبرئه الله من ذلك
ويحقق دعوته .

ولعل مما ساعد على اطلاق لقب « المتنبي » عليه تسميه بأحمد
وهو اسم الرسول في القرآن وتكنيته بابي الطيب ، والطيب هو احد
ابنائهم عليه الصلاة والسلام . ولا ننسى مع ذلك ان المتنبي عاش
في وسط هو وسط اشرف العلويين بالكوفة وان جدته التي كان
في حضانتها كانت احدى صلحاء النساء الكوفيات .

ولنتقي في النهاية براي طريف للنهشلي القيرواني في كتابه
المتع ، وعنده ان « أحمد بن الحسين المتنبي قيل له المتنبي لفظته »
وهو رأي نجد ابن رشيق ينوه به في العمدة ، والواقع ان اغلب
المحققين القدامى لا يأخذون بخرافة ادعائه النبوة ، ويردون لقبه الى
ما تميز به من فطنة ، وخاصة في الشعر منذ صغره . ويحكى - وهي
حكاية تصدق رأي النهشلي - ان المعتد بن عباد صاحب فرطيسية
واشيبيلية اتشد يوما في مجلسه قول المتنبي :

وما الحسن في وجه الفتى شرف له اذا لم يكن في فعله والخلاق

وجمل يردده استحسنانا له وفي مجلسه ابو محمد عبدالجليل
ابن وهبون الشاعر الاندلسي فاتشد ارجالا :

لئن جاد شعر ابن الحسين فانما بقدر العطايا والله تفتح الله لها
تبا في نظم القريض ولسو درى بانك تروي شعره لتالها

ونفل حازم الفرطنجي عن ابن علي بن سينا « ان العرب كانوا
ينزلون الشاعر منزله السبي فيتعادون لحكمه ويصدون بكهانه »
وكل ما نعلمه بعد ذلك على لطيب ابي أنطيب بالمتنبي هو ما يكون
قد تركه هذا اللقب من اثر في نفسه وسلوكه وسعره . اد لا أقرب
من ان يكون قد ملأه هذا اللقب الفخم اعجابا بنفسه وفوق له شعور
المفوق على سائر البشر . وربما لكونه غير نبي على الحقيقة ولا
على المجاز ولا حتى بالادعاء لا تراه يستغف للناس أو يستشفع لهم او
حتى يظهر مجرد التسامح معهم بل سراه بالعكس سيء انظن بالناس
جميعا كثيرا استخط عليهم . وربما يسبب ذلك ايضا اكثر في شعره
من تشبيه غربه في قومه وفي فنه وفي الحياة عامة بغربة الانبياء
والمرسلين ، كقوله :

ما مامي بارض نحلة الا كهمام أسبيح بين يهود
وفوله : تيممني وكيلك مادجا لي وانشدني من الشعر الفريبا
فاجرك الاله على عليل بعثت الى المسيح به طيبيا

ولم يكن المتنبي يقتصر في التحقيرة على تشبيه نفسه فقط بالانبياء
بل قد تجره المبالغة في المدح احيانا الى تشبيه بعض ممدوحيه
بصفات الانبياء وبما هو أعظم ، كانه بذلك يريد ان يسرك ممدوحيه
بما هو من صفاته وخصائصه تكريما لهم او لنفسه بهم . ومن ذلك
ما يقوله في مدح محمد بن زريق الطرسوسي :

لو كان ذو القرنين اعلم رأيه لما أتى الظلمات صرنا شموسا
او كان صادف رأس عزز سيفه فسي يوم معركة لاعيا عيسى
او كان لبحر مثل يمينه ما اتشق حتى جاز فيه موسى
او كان للثيران ضوء جبينه عبتت فصار العالمون مجوسا

ويبدو ان حاديه الاكبر في رحلة الطموح والعظمة هو هذا اللقب
الذي حمله منذ صباه . كان بحدوه بقوة وبدون هواده في سائر
احواله وشعره . وقد نستطيع على ضوء ذلك ان نفسر ما وصف
به ابو الطيب من النهور والتجاسر وحدة الطبع .

الا ان تعامل الشاعر بهذه الصورة مع سير الانبياء وعدم انكار
احد من الممدوحين عليه ذلك لنفسه او لهم ، يدعونا الى ان نفكر في
ان الوسط الثقافي والديني عامة كان منساجما مع الشعراء فيها
يقولون . وكان اكثر الناس يحملون مبالغته محمل اتفن ويجرونها
مجرى الجوازات والضرورات الشعرية ، ولا بد ان يكونوا اكثر سامعا
مع من كان ذلك ديدنه وهجيره كالتنبي . ونقول ذلك لاننا لا نرى
كيف يمكن ان نرد المسألة الى موقف اعتقادي معين . والحال ان ابن
جني وغيره ممن لاحظ ذلك في شعر المتنبي لم يقل الا انه « كان
يتجاسر في الفاظه جدا » :

ولم يكن ذلك منه عن تشيع فيه لان شعراء الشيعة والاسماعيلية
لا يمدحون من دون ائمتهم بصفات الانبياء ، بينما نجد المتنبي يمدح
نفسه وغيره بما هو فوق ذلك احيانا بالتشبه بالخالق . من ذلك
قوله يمدح الاوراجي الكاتب النصوف :

واذا مدحت فلا لتكسب رفعة للشاكرين على الاله نناء
وقوله في سيف الدولة مع الاعراب الخارجين عليه :

ولكن ربهم اسرى اليهم فما نفع الوفوف ولا الذهب

وقال يصف كيف استقبله ممدوحه وصفا يذكر بما وصف به
الله تعالى نفسه على العرش :

فلما جتته اعلى مجلسي واجلسني على السبع الشداد

وقوله يمدح عبيدالله بن يحيى البحرني :

فكن كما انت يا من لا شبيه له او كيف شيت فما خلق يدانكا

وقوله يمدح سجع بن محمد الطائي :

كن حيث شئت يسر اليك ركبنا فالارض واحدة وانت الاوحد

وقال يمدح المغيث بن العجلي :

واعطيت الذي لم يعط خلقك عليك صلاة ربك والسلام

وقد كثر الظمن على المتنبي بسبب ذلك الشعر وغيره في كتب بعض شراخه ، من ذلك أن الواحدي توقف منحرجا عند قول ابسي الطيب :

أي محصل ارتقي ؟ أي عظيم أنقي

وكل ما خلق الله وما لم يخلق

محتقر في همتي كشمرة في مفرقي

فقال: قوله وما لم يخلق، ليس معناه ما لا يجوز ان يكون مخلوقا كذاذ الياري عزوجل وصفاه ، لانه لو اراد هذا للزمه الكفر بهذا القول وانما اراد ولم يخلفه مما سيخلفه بعد، وان كان قد لزمه الكفر باحتقاره خلق الله وفيهم الانبياء والمرسلون والملائكة المقربون .

ونحن نعتقد ان المتنبي، وقد قال هذه الابيات ارنجالا في صباه، لم يفكر مطلقا في شيء من المعنى الذي استنبطه منها بكل تفقسه الواحدي ، فضلا عن كون حديث الخلق في البيت الثاني متعلق في الحقيقة بمحل وبعظيم وليس بانبياء ولا ملائكة واهرى بالله . ومع ذلك فذكر الله في البيت نفسه لا يدل على تجديف في حق الخالق، وانما يريد ابو الطيب في اندفاع صبياني أن يقول أن همته لا تعجز عن ارتقاء كل محل رفيع ولا نهاب دون ذلك احدا ولا عظيما . فانت ترى أن الواحدي استحضر كل علمه بالدين ونسي شخصيته المتنبي وما يحيط بها من تحديات كتب الشاعر على نفسه ان يرفعها.

وكذا الاصفهاني ابو القاسم في كتابه «ايضاح المشكل في شعر المتنبي» فقد قال عنه « هو في الجملة خبيث الاعتماد » ، وردت ابياتا عديدة من شعره الى مذاهب المتفلسفة والسفسطائية والتناسخ والقضائية والشيعية والحشيشية وغيرها ، ثم يقول وكأنه يرضى به : « والانسان اذا خلع ربة الاسلام من عنقه واسلمه الله عزوجل الى حوله وقوته وجد في الضلالات مجالا واسعا ، وفي البدع والجهالات مناديسح وفسحا » .

لكن التكفير بالشعر في تاريخ الادب العربي ليس مذهب قلة من النقاد في عصر المتنبي وفي غير عصره بل هو مذهب قائم في كل العصور وله دعائه من انصار التآذب حتى في الشعر بآداب الدين واعبار ما يلزم نحو ذات الله وصفاته والانبياء ورسالاتهم والملائكة والاولياء والقربين . وتلك مدرسة مشهورة في النقد العربي نقابلها وتساجلها احيانا الفلية مدرسة اخرى يرى اصحابها ان الشعر في حل من الدينيات لاسباب بلاغية صرفة لا لامر اعتقادي راجع لايمان فائله او منشدته . ونجد ابن جني يدافع في هذا الشأن عن المتنبي دفاعا حارا . فعين عرض الى قول المتنبي يمدح احد الفاطميين : وابهر آيات التهامي انه ابوك واجدى مالكم من منافب

قال ابو الفتح : « قد اكثر الناس القول في هذا البيت وهو في الجملة شنيع الظاهر . وقد كان يتعسف في الاحتجاج له والاعتذار منه بما لست اراه مقنعا ومع هذا فليست الاراء والاعتقادات في الدين مما يقدر في جودة الشعر وردائه » .

ومن غريب ما نلاحظه في هذا البيت انه صورة مكررة للبيت الذي توقفنا عنده سابقا في رثاء جدته حيث جعلها تفتخر بانتسابها اليه ببدل العكس :

ولو لم تكوني بنت اكرم والد لكان ابك الضخم تكون لي اما

فهو في هذا البيت كذلك جعل على الظاهر ممدوحه الفاطمي يفخر بانتساب الرسول اليه . وكان العكس بطبيعة الحال هو الاليق لان علماء الدين لا يحكمون الا بالظاهر . غير ان العروضي وهو احد شراح المتنبي ذهب في تفسير هذا البيت مذهباً طريفاً لا يخلو من

افتناع حين قال عنه : « هذا بيت حسن المعنى مستقيم اللفظ حتى لو قلت انه امدح بيت في الشعر لم ابعد عن الصواب ، ولا ذنب له اذا جهل الناس غرضه واشتبه عليهم » ومعنى البيت عند العروضي ، ان كفار فريش كانوا يقولون ان محمداً صبور ابتر - اي منفرد لا عقب له - فانزل عليه الله : « انا اعطيناك الكوثر » - اي الكثير واما شأنك فهو الابتر فقال المتنبي : انتم معشر الفاطميين من معجزات النبي وآية لتحقيق قول الله فيه .

ومع ذلك فابن جني انما دافع عن الشعر ان يدخل الدين فسي معياري جودته وردائه لا على المتنبي وصحة اعتقاده او سلامته . وبامكاننا ان نلتقط اشارات اخرى من شعره نقف بها على آثار الاصفهاني ، تدل على رفة دين المتنبي . اهمها غياب ذكر الجنة والثواب والعقاب في مراثيه وفي كل تأملاته فيما بعد الموت ، غير انه من الصعب ان نقبل ان المتنبي كان في الوقت نفسه شيعيسا وسفسطائيا وحوليا وفضائيا ، ولا يمكن ان نتصور كالاصفهاني ان ابا الطيب كان وعاء لجميع المعتقدات التي ذكرها في شعره . وانما المسألة في تقديرنا ان الشاعر استعمل كل ثقافته الفكرية بدون تحرج بل احيانا بكل صلف ، وركبها لكل اغراضه واهمها منها بحسب من يتجه اليهم في شعره ، لا بحسب ما يمليه عليه اعتقاده . وهذا ديدن اغلب الشعراء من قديم الزمان .

وان كان من سؤال عن اعتقاده هو ، لا عن اعتقادات من يتحدث اليهم او يشبه باعتقاداتهم في شعره ، فجدير بنا ان نلاحظ اولاً ان الادب العربي يخفل بأمثلة الشعراء الزنادقة ، ولم يكونوا كلهم على الزندقة في الحقيقة . وانما هي مذاهب الشعر ذهبت ببعضهم كل مذهب ، وكلم شاعر اودى به لسانه .

وحين كان النصف الاول من القرن الرابع ، في عصر المتنبي ، كان الاخذ بالزندقة قد خف بل كان يتقطع ، وتحلل الشعراء من ربة الفقهاء وتفاضى السلاطين عن مجازفات شعرائهم واحالاتهم طلبا لمدحهم ورغبة في المنافسة بهم .

وكان الناس قد عرفوا المتنبي منذ اول عهده بالشعر على غاية من الفضول و « التهور » في الفاظه ومعانيه، وكانوا قد عرفوا كذلك ان نفسه قد يكون سكنها شيطان الشعر او شيطان الفرور ولن يبرحها ابدا حتى يبرح روحه جسده . وربما لذلك احتلموا منه ما لا يحتمل من غيره لروعة شعره وسحر بيانه .

ونحن نعتقد بصورة عامة انه من اتصعب البحث عن اعتقاد معين لشاعر من الشعراء لان طبيعة الشاعر مجافية للمعيادة العامة وخاصة في حالة شعراء كبار من امثال المتنبي والمعري وشار . فلم يكن للمتنبي قلب يعرف الاطمئنان والخشوع والضراعة طريفاً . ولم يوصف ولا شوهد من آحواله الا عكس ذلك . فقد كان بحق كما وصف احدهم « صاحب فجرات واختيارات » . ويمكن استعارة هذا البيت من شعره لتمثيل حاله اصدق تمثيل :

كريشة بمهب الريح سافطة لا تستقر على حال من القلق

او قوله يتحدث عن نفسه :

وما انا غير سهم في هواء يعود ولم يجد فيه امتساکا

ومع ذلك ، فلم يشك المتنبي لحظة في الاسلام او يشك في دين من اديان الله ، ولكنه عرض في شعره لكثير من المسائل الانتقادية، ربما برئيه احيانا واهيانا بغير رايه . وليس يمنع الدين ذلك على احد ، فما بالك بشاعر .

ومع ذلك ايضا فلقد كان المتنبي حياته كلها خيرا من كثير من اهل زمانه ، من الشعراء وغير الشعراء ، ممن كانوا يراوون في حياتهم بين الخلة المحظورة والخلة للعبادة . فلم يعرف عن ابي الطيب انه كان يوما من انساؤه او جلسائه الخمر او النساء او الفلجان . وقد عزا بعض الدارسين ذلك الى مذهب يعتقدده ، لعلة المذهب القرمطي . ومن المحتمل في رأينا ان يكون سبب هذا الانصراف غير

مذهب بعينه . بل هو امر راجع الى مزاجه وما جبلت عليه نفسه .
لانه في المرات التي عرض فيها لهذه اللذائذ في شعره لم يظهر تحريما
بشائها او كراهة لها في ذاتها . بل نستشف من ردود فعله ازاءها
بانها كان يملك نفسه ملكا شديدا عن مواطن الابتذال والاذلال
والتعرض للاعراض . ونحن نعرف انه لم يكن شيء في نفس المتنبي
ابغض له من الاشتراك والناس في حالة واحدة ، حتى لقد عرض
بيدر بن عمار ، وكان كل مرة ينقطع عن الخمر ثم يعود اليها وتصبح
حاله فيها وهو ملك كحال غيره ، فقال له :

ايها الملك الذي ندمناؤه شركاؤه في ملكه لا ملكه

ولو كان المتنبي حرم على نفسه شرب الخمر لانقاذ صميم يمتدده
لما ترخص لنفسه مرة واحدة تحت الحاح بعض ممدوحيه وشرب للود .
ونحن نجد في ديوانه انه سقاه بدر بن عمار ولم يكن له رغبة في
الشراب فقال :

لم تر من نادمت الا كلسوى ودك لسي ذاك
ولا لحبيبهها ولكني امسيت ارجوك واخشاك

ومن ديوانه ايضا انه عرض عليه محمد بن طفج الشرب فامتنع
فأقسم عليه بحقه فشرب وقال :

سقاني الخمر قولك لي بحقي وود لم تشبه لي بمدق
يمينا لو حلفت وانت نساء على فتلي بها لضربت عنقي

ويبدو ان بدر بن عمار كان ليجّ عليه مرة في شرب الخمر عنده ،
فلم يجد المتنبي بدا من ان يسانعه هنيهة لم يلبث بعدها ان
تظاهر بالاشفاق على وعيه وتخلص منه حتى لا يفاضبه بهذين البيتين:

نال الذي نلت منه لله ما تصنع الخمر
وذا انصرافي السى محلي اأذن ايها الامير؟

ولعله بعد هذه الحادثة يمكن ان نضع هذه الابيات التي جاء
في مقدمتها بديوانه : انه عرض عليه بدر بن عمار الصحبة للشرب من
غد فقال ارتجالا :

وجدت المدامة غلابة تهيج للقلب اشواقه
تسيء من المرء تاديبه ولكن تحسن اخلاقه
وأأنس ما للفتى ليه وذو اللب يكره انفاقه
وقدمت امسى بهما موة ولا يشتهي الموت من ذاقه

وموقف المتنبي في هذه الابيات واضح ، فامتناعه عن الخمر امر
يمليه عليه الحفاظ على عقله وسلوكه . وهو موقف طبيعي من ظروف
نشأته كظروف نشأة المتنبي ومن تحمل همّ ما لقبه الناس به وهم
نفسه ، ليكون دائما كوكب المحافل وحديث الدنيا بأسرها (1) .
ومن طريف ما يلاحظ في موقف المتنبي من العقل ، او مما يدل على
ان عقل المتنبي هو عقل لا يدعو صاحبه الا الى فعل العظامم انه لما
عزم وهو بمصر على مدح فاتك الاخشيدي والي كافور - وكان يلقب
بفاتك المجنون - قلب ابو الطيب الدم بلقبه مدحا فقال :

وقد يلقبه المجنون حاسده اذا اختلطن وبعض العقل عقال

ويمكن ان نقول مثل ذلك في كل مواقف المتنبي من الناس والحياة
وهي مواقف نابغة عن عقيدة خاصة به اكثر من كونها عن عقيدة
عامة ، قرمطية او غير قرمطية ، يأخذ بها مع غيره من الناس .

وما مبادئ عقيدة المتنبي هذه - في نظرنا - او اصول هذه

(1) ويبر عن موقفه ذلك باكثر وضوح في قوله :

وترى الفتوة والروءة والابسو ة في كل مليحة غرانتها
هن الثلاث المانماتي لذتسي في خلوتي لا الخوف من تبعاتها
واصاب العكبري في شرح هذه الابيات حين ذكر قول الحكيم :
النفس المتجوهرة تترك الشهوات البهيمية طبعاً لا خوفاً .

الفلسفة الخاصة به الا اصداء لتطلعات نفسه ومبررات لتحقيق مآربه
ومطامحه الذاتية . ونحن نقدر ان شخصية متجوهرة كما قال العكبري ،
شخصية في قوة وشاعرية المتنبي لا يمكن ان تكون مفاهيم الاشياء
لديها نابغة منها بقدر ما تكون منبعثة منه عليها . وقد لا نجاوز
اذا قلنا انه ليس بشاعر من تكون للاشياء والمواضع قيم ذاتية
نابغة في نظره .

ولذلك ، فان ايمان ابي اَطيب بانقدر ليس على مذهب الحشوية
بل يعتقد ان الفناء يمكن رده ، وكذا الحسن والقبح ، فهو عنده
ليس ذاتي في الاشياء بل ما حسنته نفسه فهو حسن وما استنقبحته
فهو فيج (ك) . وهذه المبادئ انسب له في الشعر والبلغ له
في تحقيق أمانيه . وقد تقدمت أمثلة من ديوانه على ذلك . ونريد ان
نشير هنا فقط الى مثال قريب يصور لنا كيف ينعكس موقف المتنبي
من الاشياء الخارجية على صورتها في نفسه ، ففي قصيدة مدح بها
سيف الدولة وكان جالسا تحت فبة من الدباج عليها صورة ملك
الروم وصورة وحش وحيوان قال - وكأنه لا يستطيع ان يرى صورة
ملك الروم الا ذليلا امام ملك العرب - :

وفي صورة الرومي ذي التاج ذلة لابلج لا تيجان الا عمائم

لقد كانت الحياة العامة حول المتنبي لا تبعث نفسه الانفرادية
والقلق بطبيعتها على الاطمئنان لاحد او انرضى بشيء ، فويرته
عن جميع المذاهب الفاتمة والسياسات الحاكمة لم تسلمه الا السى
الانطواء على شعره يحقق به وجوده وينشر فيه اعلامه . ونظن انه كان
يفعل للاستيلاء على عرش أشعر فعل المستولين على السلطة في عصره .
فلنجد رثى ولد سيف الدولة بقوله :

توليه اطراف البلاد رماحه وتمنعه اطرافهن من العزل

ولم تكن للمتنبي فيما نعلم صنعة اخرى غير صنعة
الشعر . ونعتقد انها حرفته الوحيدة منها ياتيه رزقه
ومنها يستمد مجده واشعاعه . فزمنه اخلاق الشعراء
المادحين . وهي ليست في الحقيقة اخلاق سلوكية او فلسفية
يقدر ما هي وسائل مشروعة فينا واجتماعيا لكسب قوته
وتحقيق فنه . ولذلك كان من الطبيعي ان يكون من اسمى القيم
الاجتماعية في نظر الشاعر الجود والكرم . وهي اخلاق المهنة
ورثها الشعراء منذ وقت طويل في تاريخ الشعر العربي . ولذلك كان
من الطبيعي ايضا ان يكون التلاحق والمفاضة بين الشعراء وممدوحهم
وبين الشعراء بعضهم مع بعض لا من اجل مبدأ او فكرة ولكن من
اجل تظيف في الجائزة او الحرمان منها .

ونحن نعتقد ان المتنبي كان خاضعا في دورته الشعرية لثلاث
جاذبيات كبرى : جاذبية الجائزة وجاذبية الجودة الفنية وجاذبية
الشهرة . وهو في الواقع لا يخرج بذلك عما يخضع له عادة سائر
الشعراء . غير ان جانب الاصاله في المتنبي جملة يحاول محاولة نادرة ،
هي ان يجعل كل ما حوله منجذبا اليه خاضعا لهواه محققا لرغائبه
وهوم نفسه . وكان على المتنبي ان يحقق مع ذلك توازنه بين هذه
الجاذبيات المتقابلة . ولعله انما وفق فيما وفق فيه بفضل اخلاصه
الشديد مع نفسه اي بقائه كما هو وبفضل اخلاصه الشديد لفنه .

لقد نجح المتنبي في ان يرتفع بشعره الى مستوى جوائز الملوك
والرؤساء ، وان يبلغ به في التجويد مرتبة تعجب العلماء والنقاد ،
وان يفتح له ابواب الشهرة في غرب العراق وشرقها متحديا كل صروب
الاحتكار او الاستحواذ التي حاولها الملوك ازاءه . .

كان المتنبي يربأ حتى بالهزاء على من ليس اهلا لشعره . وكان
ذلك ادراكا عميقا منه لاهمية الشعر وشعره بالخصوص . وهو ادراك

(ك) كقوله :

ما الخوف الا ما تخوفه الفتى ولا الامن الا ما راه الفتى امنا

غريب ، لان الناس كانوا قد تنزلوا بالشعر قبله وفي عصره الى ابسط اغراض الحياة ومرافقها . وكان لابي الطيب راي طريف كذلك في منح الملوك التي تطعي على الشعر ، يدل على تدبير عظيم للفن واحلاله فوق كل مقابل . ولم تكن النفس المتنبية او نفس كنفسه تركبي هذا التدبير للفن ، ولم تكن الا عبقرية كعقريته لا تستطيع ان تصنع الشعر على نسبة الممدوح في نفسه او نسبة الجائزة منه ، او تجل عن ذلك . وظل المتنبى مخلصا مع نفسه ومخلصا تفنه رغم ما كان يلاحظه بهرارة من تصرف الممدوحين بشعره عطاه عليه او مضاهاه به ، ويقول :
ومن يظن نثر الحب جودا وينصب نحت ما نثر التسيكا

وهو تعريض بسائر الملوك ، يشير الى انهم يوجدون ضمعا في جر المنافع كمن نثر حبا تحت شبكة لم يعد ذلك جودا بالحب لانه انما نثره لاخذ الصيد الذي هو خير من الحب .

ويقول في بعض مخاطباته للملوك :

وما رغبتني في عسجد استفيده ولكنها في مفخر استجده

ولا نستطيع ان نقول ان المتنبى يبرر هنا لاخذ انجائزه ، لان معرفتنا بنفسيته تؤكد انه كان يحيى بالفخر واللفخر ، ولان الفنان - من ناحية اخرى - انما يزكو فنه بما يظهر الناس من شعور الاعجاب به ؛ وكانت الجائزة مظهرا من مظاهر ذلك الاعجاب ولا تزال الى اليوم . ويقول المتنبى مخاطبا بعض ممدوحيه :

كل شعر نظير فائله فيك وعمل المجيز عمل المجاز

ولدينا خبر على غاية من الاهمية اذ يساعدنا على فهم بعض احوال المتنبى في هذه القضية وما يتصل بها وخاصة علاقته بالممدوحين وتقلبه بين الامصار . ولفظة هذا الخبر انه لما كان ابو الطيب باررجان عند ابي الفضل بن العميد جاء ابن العميد كتاب من عضد الدولة في طلب المتنبى ، فاباه ابن العميد به فقال : مالي وللدليم ؟ فقال ابو الفضل : عضد الدولة افضل مني ، ويصلك باضعاف ما وصلك به ! فاجاب : « باني مكلفي من هؤلاء الملوك اقصدا الواحد بعد الواحد ، واملهم شيئا يبقى بقاء النبرين ويعطونني عرضا فانيا ، ولي ضجرات واختيارات فيعوفونني عن مرادي تاحتاج الى مفارقتهم على اقبح الوجوه » . فكتاب ابن العميد عضد الدولة بهذا الحديث ، فورد الجواب بانه مملك مراده في المفهوم والظن .

وموقفه من جوائز الملوك يوضحه كذلك ما رواه ابي تديهي قال : « ان المتنبى لما كان باررجان قال : « الملوك فرود يشبه بعضهم بعضا لا على الجودة يعطون » وهو حكم صحيح في عمومه غير ان المتنبى منهم فيه بمعاداة جميع الشعراء لفرط ألمعجب بنفسه وبشعره ، كالديك يفض ما دونه من الدجاج في الحبة الواحدة ولو على شيع . ولذلك كنا نفر ظاهرة الشكوى من الحساد المنتشرة بكثرة لافتة في شعره بالانانية المستحكمة من نفسه في علاقته بالآخرين . فكان هو الحسود على الحقيقة والناس هم المحسودون . يقول في قصيدة في مدح سيف الدولة :

فابلغ حاسدي عليك انسي كبا برق يحاول بي لحاقا

فهو شخص لا يرضى بالمشاركة في شيء .

اذن فقد فصل المتنبى بين الاخلاص لفنه وبين الجائزة عليه دون ان يستطيع الفكاهة من اقتضاء الجائزة او دون ان يجد غرضا لشعره غير غرض المديح . وقد بيننا ان ذلك لم يكن عن قلة تطلع منه الى اغراض اخرى يقول فيها الشعر ، ولكن لانه كان يحب ان يمدحه الناس بشعره . فلم يكن امامه الا ان يمدح به الملوك والعظماء ليشتهر امره ويديع خبر جوائزهم له ويعظم قدره عندهم فيكون الممدوح على الحقيقة وهم المادحين . وتشهد بذلك اخبار استئصال الملوك له وما لبسوه من الخلع الملكية وما وضعوه بين يديه من البدر والهدايا ورضائهم خاصة بشرطة في عدم الوفوف

بين ايديهم عند الانشاد على العادة في تعظيمهم . وادل من ذلك كله انك نقرأ قصائده في مديحهم فلا ترى قصيدة واحدة مغطاة من معاخرة . بل أنك تواجده من قصائده ما اقلها في مدح نفسها اقلها في مدح الملك . وتراه يبدأ القصيدة بحديث همنه ونعاليه وتحديده الصعاب ويلم الامام بالمديح ثم يتركه للفخر بنفسه من جديد ، ويرواح بين شخصه وشخص الملك في المديح حتى لا يتسرك خصلة من خصال الملوك لا يشاركهم فيها الا الكرم . وحسبهم لانه انما يقتضهم العطاء على شعره .

فقد ذكر أبو القاسم الاصفهاني ان المتنبى لما أتى سيف الدولة « اشترط انه لا ينشد الا قائدا وعلى الوحدة ، فاستحمله واجابوه اليه . فلما سمع سيف الدولة شعره حكم نه بالفضل وعد ما طلبه استحقاقا » فهل نال الشعر اشرف من هذه المكانة على يد غير المتنبى ؟ ولم تكن موافق ابي الطيب مع غير سيف الدولة من الملوك باقل من هذا الاعزاز لنفسه والتشريف لشعره . حتى عرف ذلك من رسوم المتنبى في انشاد الشعر . فيروي الاصفهاني كذلك انه قام بحضرة عضد الدولة وبيده درج « فاجلسه عضد الدولة » . ولما قصد ابو الطيب مدح ابا القاسم طاهر العلوي كانت حاله معه اعجب ، فهد فال علي بن القاسم الكاتب : كنت حضرا هذا المجلس فما رايت ولا سمعت ان شاعرا جلس الممدوح بين يديه مستمعا لمدحه غير ابي الطيب فاني رايت هذا الشريف قد اجلسه في مجلسه وجلس بين يديه فانشدته القصيدة » .

ولذلك نسفر ما يتناقله مؤرخو الادب عن تهاقت المتنبى على الجائزة ، وخاصة كما يصورونه في علاقته بكافور ، يريق ماء وجهه في طلب ولاية منه او اقطاع بمصر . ولهم في ذلك فوله في بعض مدائحه لكافور :

اذا لم تنظ بي ضيعة او ولاية فجودك يكسوني وشفلك يسلب

وفوله له في بيت سابق من القصيدة نفسها :

أبا المسك هل في الكاس فضل اتنا له

فانسي اغني منذ حين وتشرّب

قالوا : ان انولاية التي كان يطعم فيها المتنبى هي ولاية صيدا ، وكان كافور وعده بها وقالوا ايضا : ان اماله الواسعة في السلطان هي التي حملته الى مصر ، فلما لم يظفر من ابي المسك بضيعة ولا ولاية هجاه ككل شعر للمتنبى يمدح ويهجو بالكذب من اجل مال يصيبه او لا يصيبه .

ونحن نعتقد ان ذلك غير صحيح وانه من بعض ما وقع من اوامر واغاليط في تاريخ ادب العربي لاسباب مختلفة منها قلة التحري في الاخبار وعدم المطابقة بينها وبين احوال الشاعر في نفسه وفي فنه .

لقد رأينا من احوال الشاعر ونفسيته ما يكذب كل الاخبار الواردة عن تواضعه او انضاعه بشخصه او بشعره لانسان ما او في محل من المحال . وعلانه بكافور لا بد ان نراجعها على هذا الاساس . وخبر هذه الولاية التي قيل ان المتنبى كان يطلبها يستند فيما يبدو لنا الى امرين : الى مجرد دسياسة من ناحية ، ومن ناحية اخرى الى ذلك البيت الذي جاء فيه ذكر الولاية والضيعة . غير ان تلك الشائعة او الدسياسة سرعان ما انقلبت على السنة الرواة الى وعد قطعه كافور على نفسه للمتنبى . ثم اتخذ الشراح ذلك البيت مصدقا للوعد ، ونسي الامر . ولم نر من تظن اني التامل في التصود الحقيقي للمتنبى من البيت في تلك القصيدة وفي ضوء ما تطورت اليه آنذاك علاقته بكافور وعلاقته بكافور به .

والروايات المختلفة في هذا الموضوع كلها ظاهرة التلفيق ، من ذلك ما ذكره الاصفهاني قال : « .. وسمعت من قال : ان كافورا لما سمنع قوله :

اذا لم تنيظ بي ضيعة او ولاية فجودك يكسوني وشفلك يسلب

كان همه الوحيد الا يكون مدح ابلغ للملوك الا بشعر ، والا يكون تكريم لشاعر اعظم من تكريمهم اياه . ومن اجل ذلك كان يكره ان يفسر شعره او نفسه على البقاء في خدمة واحد منهم ، لانه انما يرصد ان يكبروا جميعهم في خدمة الشعر الهما وابداعا وشهرة ، وري خدمة شخصه وتوجيه اياه ملكا على الشعراء قاطبة .

هذه هي السلطة التي كان يبحث عنها المنتمي في مصر وفي غير مصر من العواصم ولم يكن يسمى الى ولاية يحكم فيها بالعدل والفسطاط او يتو هيبها على ذلته من اهلها وفي غفلة من كل خليفه او سلطان قومه ، ومهما تكن اطماع الثائرين في عصر المنتمي ومهما يكن تصورنا عن الاضطراب السياسي في ذلك العصر فلا ينبغي ان نغفل عن ان الولايات كانت من نصيب الامراء والقواد تغطي لهم عطية او ينزعونها انتزاعا وكذلك لاهل السابقة في الدولة او لاصحاب دعوتها وللانكفاء من مواليها ومن بيوتات الرئاسة والشرف فيها . وكافور الذي ربما قيل ان مثاله اغرى المنتمي لا يخرج هو او غيره من المنزلة على الحكم في عصره عن واحد من احدى تلك الطبقات . والمنتمي وهو الملك على رقاب الشعراء ابعد من ان تكون همته - حين جاء مصر - الى تليكه وراية العباد . انما مملكة شعره هي التي اراد ان يتسع بها وبسطها كذلك على كافور . لكن ابا المسك حبيب ظنونه او خابت ظنون شاعرنا العظيم في عزيز مصر وفي اهلها ربما من يوم نزوله ومن يوم لقائه لاول به . ولا تزال مصر تخيب ظنون الكثيرين من فسادها المتعاطفين . لقد كان في طبع المنتمي جراءة وجفو وفسوة وحدة واباء من اشد ما في طبع العرافيين من ذلك . ويصعب على من كان ذلك طبعه ان يكتسب ود اهل النيسل ومحبتهم ، اذا لم يصانهم ويخالط طباعه بطباعهم . ولا يزال اهل مصر لا يعظم عندهم عظيم الا اذا عظموه ويحتقر عندهم كل عظيم اذا حضروه .

ولا شك ان كافورا قد عرف اشياء عن المنتمي منها ادلاله على الملوك وتعاطفه والمفالة بشعره على الجائزة . ولعله ان يكون قسدر للظفر بمدائح كثيرة من المنتمي ان يأخذه بالبقاء عنده اطول مدة وان يدس اليه بالوعود المغرية حتى لا تنقبض نفسه منه او يخيب امانيه عنده بقله الجائزة .

ولم تكن لتغيب نوايا كافور ولا قلة علمه بالشعر . عن فطنة المنتمي . وساعرنا بطبعه لا يستطيع ان يخفي انفعالاته او يستاوم في عزة نفسه والتغالي بشعره . وكل فكرة للعدول عن البقاء في خدمة كافور او الامسك عن مدحه كانت تكون مفارقة سابقة لاوانها ، ولا بد لها على الاقل من مدة للتممية عنها واختبارها قبل القيام بها .

لكن الحالة النفسية الحقيقية للمنتمي كان لا بد ان يطلع منها على السطح جانب . هذا الجانب هو ما نلاحظه في شعره في الفترة المصرية من تحسر على مفارقة سيف الدولة حيث كان مكرما في دولة العلم والادب ، وكذلك حينئذ الى اهله بالعراق وهو ثالثا شكواه المتزايدة من الدهر الفادر والجد العائر . وليس ذلك كل ما نلاحظه من هذا الجانب في شعره المصري بل ابرز من ذلك كله هو هذا المدح الذي كان يوجهه الى كافور ملفقا باقذع الهجاء . او قل هذه القصائد التي نراها مدحا كابلغ المدح في بهو البلاط الاخشيدي ونراها خارجة في ضوء النهار هجاء مقنعا .

ونحن نعتقد ان هذه ظاهرة غريبة في شعر المنتمي ولا نعرفها عند من سبقه ، ولعل ابا الطيب ان يكون هو اول من ابتدعها في الشعر العربي . وهذا الشعر الذي يحتل ظاهرا وباطنا لم يكن من ابواب البلاغة في الادب العربي ، وليس هو من الاسلوب المعروف لدى البلاغيين القدماء باسلوب الحكيم وليس هو من التعريض او من التهكم المعروف في النثر الفني عند الجاحظ وامثاله . وهذا اللون من المدح المحتمل للهجاء والذي ليس هو كذلك من النفاق او من صفاته ، انما هو فيما يظهر فن طريف من فنون التفسير ، لعل

يلتمس ولاية صيداء . فاجابه : لست اجسر على بوليك صيداء ، لانك على ما انت عليه تحدث نفسك بما تحدث . فان وليتك صيداء فمن يطيقك ؟! » وقال بعض الشراح : « انه - آي كافور - قال لابي الطيب : انت في حال الفقر وسوء الحال وعدم العيين سميت نفسك الى النبوة ، فان اصبت ولاية وصار لك اتباع فمن يطيقك ؟! ونحن نعتقد ان هذه من استزادات الرواة وان اصل الخبر انما هو ما نقله احد شراح الديوان من « ان كافورا كان تقدم الى الحجاب واصحاب الاخبار ، فكانوا كل يوم يرجفون بانه قد ولي ابا الطيب ناحية من الصعيد ، وينفذ اليه قوما يعرفونه بذلك فلما كثر ذلك وعلم ان المنتمي لا يثق بكلام سمعه حمل اليه ستمائة دينار ذهب فقال ابو الطيب هذه القصيدة يمدحه بها :

اغالب فيك الشوق والشوق اغلب

واعجب من ذا الوصل والوصل اعجب

الخ . . »

ومعروف ان هذه القصيدة قالها المنتمي حين بدأ يبرم بالبقاء بمصر الى جانب كافور . ومن يراها كلها يدرك ان اهم فقرة فيها هي محاولة ابي الطيب افئاع كافور بتسريحه الى اهله ويندفع له بمناسبة العيد لشدة الحنين فيه الى الاهل . ويعرض المنتمي لسي الانباء بحدوث الولاية فيقول له أنك لم تولني ولاية ولم تقطعني ضيعة واذا لم تفعل ذلك لتتزمي البقاء نحوك هلم البقاء ؟ فان نعمك التي تكسوني بين لا اكاد اسر بها ويسلبها مني انشغالك عن تحقيق امنيتي هذه وهي الرجوع الى اهلي وشدة شوقي اليهم وخاصة في هذا العيد .

اذا لم تنط بين ضيعة او ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب
يضاحك في ذا العيد كل حبيبه حذائي وابكي من احب وانذب

والبيت الثاني يوضح المقصود من ذكر الولاية والضيعة « والبيت الاول على عادة المنتمي في تعلق المعنى الواحد في شعره ، بين بيتين في الغالب .

فلم تكن هناك بالمرّة في رأس المنتمي فكرة اقتضاء ولاية او ضيعة من كافور ، لا فقط لاننا نذهب الى ان كافورا لم يمدحه بذلك او يطلب الشاعر منه ذلك ولا ايضا لان المنتمي لم يصدق ما دس به اليه من حديث الولاية ولكن لامر او امور اخرى ينبغي ان تبحث عنها في ما نعرفه عن شخصية المنتمي وميوله ومدى لحمته بنفسه واطواره مع مديحيه وخاصة كافور .

ولا بد ان نلاحظ قبل ذلك ان المنتمي لم يكن قد اتى مصر بحثا عن كرسي للحكم في صيدا او غيرها من اعمال مصر ، ولعل الوهم بذلك جاء مما اتهم به في صباه من الخروج عن السلطان وادعاء النبوة وما ظنه الناس من اهداف لطموحه البعيد وهمته العالية .

ثم ان المنتمي لم يات مصر وهو فقير او سيء الحال وطامعا مع ذلك في منصب عال بل لقد دخل مصر وعنوانه الاكبر انه شاعر سيف الدولة وكان المنتمي عند الامير الحمداني من اعظم الشعراء ثروة بما وصله به سيف الدولة . فقد اخبر ابو الفاسم الاصفهاني قال : « اخبرني بعض المولدين ببغداد ، وخاله ابو الفتح يتوزد لسيف الدولة ان سيف الدولة رسم له التوقيع الى ديوان البر باخراج الحال فيما وصل به المنتمي ، فخرجت بخمسة وثلاثين الف دينار في مدة اربع سنين » . ولا يبعد ان تكرر الانقطاع المعروفة للمنتمي بمرة النعمان كلها او بعضها مما امر له بها سيف الدولة .

ولذلك يبدو لنا ان المنتمي لم يقصد كافورا لذاته وانما قصده لانه صاحب مصر ، وما ادراك ما مصر ، هذه الارض المباركة في القرآن! ولعل المنتمي كان يأمل ان يجد عند عزيز مصر مناخا اطيب لسدر الهامه وشعره ، ولعله كان يأمل كذلك ان يبيني له كافور صرحا عاليا يطلع منه على سيف الدولة وعلسى العالمين بكل فخر وازدهار . فقد

المتنبي ان يكون قد وقع عليه لاول مرة عند المصريين فاعجبوا واقتبسوه منهم في شعره ، يحقق به ما يبتغي لنفسه من الزلفى لدى ممدوحه كافور وينفس به عما يمتل بداخله من السخرية به والهزء منسه ويشفع له بآخرة في الاعتذار عن مدحه .

وكان ابن جنى يعرف هذه الخاصية في شعر المتنبي في كافور فكان يتتبع في قصائده ابيات المدح التي يمكن ان نغلبه هجاء ، كقول ابي الطيب :

فان نلت ما املت منك فرميا

شربت بماء يعجز الطير ورده

وكقوله : وغير كثير ان يزورك راحلا . فيرجع ملكا للعرافين واليا

والمتنبي نفسه يشير الى ذلك في قوله في هجاء كافور :

وشعر مدحت به الكركدن بين الفريض وبين الترفى

عما كان ذلك مدحا له ولكنه هجو الورى

ومن جهلت نفسه قسده رأى غيره منه ما لا يرى

ورغم ما جاء في ديوان المتنبي من ان كافور اخلى له دارا وخلع عليه وحمل اليه عند قدمه مصر الآفا من العراهم الا ان تشكيك الواحدى في اهمية حفاوة كافور بالمتنبي ومبلغ اكرامه يبقى امرا محتملا . وذلك بصدد شرحه قول المتنبي :

جوعان يأكل من زادي ويمسكني لكي يقال عظيم القدر مقصود

يقول الواحدى : « لهذا وجهان : احدهما ان المتنبي اناه بهدايا والطاق ولم يكافئه عنها والاخر ان المتنبي كان يأكل من خاص ماله عنده وينفق على نفسه مما حملة وهو يمنعه من الارتحال ، فكانه يأكل زاده حين لم يبعث اليه شيئا ومنه من الطلب . وقال قوم : كان الاسود قد جمع له شيئا من غلمانه وخدمه ثم اخذه ولم يعطه شيئا يقول : هو يمسكني عنده كي يتحمل بفضدي اياه فيقول الناس انه عظيم القدر يقصده المتنبي مادحا » . ويتصل بهذا الامر ما جاء في ديوانه من انه نظر يوما الى كافور فقال :

لو كان ذا الاكل ازوادنا ضعيفا لاوسعناه احسانا

لكننا في العين اضيافه يوسعنا زورا وبهتاننا

فليتة خلى لنا سبلنا اعانه الله وايننا

ومهما يكن من امر فان الذي ساء المتنبي من كافور ليس قلنا بل بل قلنا الود الذي اظهره كافور نحوه :

ان نلت منك الود هائل هين وكل الذي فوق التراب تراب

وهذا البيت مما قاله له في آخر مدائحه . فقد سلبه كافور حريته حين جعله - بعد ان حصل عنده بمصر - لا يستطيع الرحيل عنه بغير اذنه ولا مدح غيره بغير رضاه . وكان كافور يطالب ابا الطيب بالانشاد في اغراض ومناسبات معينة فكانت نفس ابي الطيب تسمح احيانا بالشعر وحيانا يعتذر بانحباس الشعر عنه وحيانا اخرى ينقطع عن لقائه والتردد اليه مدة .

فلا شك ان حريته المهددة بمصر ونظرة الاحتقار الى كافور والسخرية منه مع الاضطراب الى مدحه والبقاء بمصر على مضض بالإضافة الى اشتغال البال طوال ذلك بالبحث عن حيلة للخلاص - لا شك ان كل ذلك قد ولد حالة نفسية مضطربة وانفصام لدى المتنبي . وهي فعلا ما نجده متجليا في فترة شعره المصري . وقد تكون تلك الحمى التي كانت تفشاه بمصر من اسبابها ايضا . من ذلك قوله :

اقتت بارض مصر فلا ورائي تخب بسي المطي ولا امامي
وملني الفراش وكان جنبي يمل لقائه في كل عام
قليل عاندي سقم فؤادي كثير حاسدي صعب مرامي
عليب الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام

الى ان يقول منطلقا الى حريته القديمة :

الا يا ليت شعر يدي انسى نصراف في عشان او زمام
.. وضافت خطة فخلصت منها خلاص الخمر من نسج الفدام
وفارقت الحبيب بلا وداع وودعت البلاد بلا سلام

ومن قوله وهو في هذه الحالة النفسية المريرة :

اما في هذه الدنيا كريم تزول به عن القلب الهموم
اما في هذه الدنيا مكان يشر باهله الجار القيسم
تشابهت اليهائم والعيدي علينا والموالي والصميم
وما ادري اذا داء حديث اصاب الناس ام داء قديم ؟
حصلت بارض مصر على عبيد كان الاسود اللابي فيهم
كان الاسود اللابي فيهم غراب حوله رخم وسوم
اخذت بمدحه فرايت لهوا مقالى للاحيمق يا حليم
ولما ان هجوت رايت عيشنا مقالى لابن آوى يا لئيم
فهل من عاذر في ذا وفي ذا فمدفوع الى السقم السقيم

ومن طريف ما في الاخبار عن محاولات المتنبي للخلاص من كافور ما جاء في ديوانه من انه استاذن كافورا في المسير الى الرملة ليخلص ما كتب له به ، وانما اراد ان يعرف ما عند كافور في مسيره ، فقال : لا والله لا نكلفك المسير ، نحن نبعث في خلاصه ونكفيك فقال ابو الطيب :

اتحلف لا تكلفني مسيرا وابعد شقة واشد حالا
وانت مكلفي ابني مكانا الى بلد احاول فيه مالا
اذا سرنا على الفسطاط يوما فلفني الفوارس والرجسالا
لتعلم قدر من قارقت مني وانك رمت من ضيمي محالا

وقصة افلاته من كافور معروفة وقد سجلها لنا في قصيدته المشهورة :

الا كل ماشية الخيزلى فدا كل ماشية الهيدبى

وفيها يقول :

ضربت بها النيه ضرب القمار اما لذا واما لذا

ورغم الفرق الواضح بين علاقة المتنبي بسيف الدولة وبين علاقته بكافور الا اننا نعتقد ان اسباب فراقهما واحدة وان اختلفت في الظاهر . فهي ترجع الى ما يسميه بفجراته واختياراته ، في قوله - وقد تقدم - : « ولي شجرات واختيارات فيعوفونني - اي الملوك الذين يقصدهم الواحد بعد الواحد - عن مرادي فاحتاج الى مفارقتهم على اقبح الوجوه » .

كان المتنبي يريد ان يبقى حر التنقل بين الملوك ويريد ان يبقى حر العطاء بشعره في مدحهم ، بينما كانوا هم يريدونه على الافراد بخدمتهم ويطلبونه في كل يوم بالمدح لهم . فقد ذكر ابن جنى « ان سيف الدولة كان اذا تأخر المتنبي عن مدحه شق عليه واكثر اذاه واحضر من لا خير فيه وتقدم اليه بالعرض له في مجلسه بما لا يحب ، فلا يجيب ابو الطيب احدا عن شيء ، فيزيد ذلك في غيظ سيف الدولة » . ولذلك فما يقال عن هجر المتنبي بلاط سيف الدولة الكثرة ما اصبح من حساده به او لتهمج ابي فراس الحمداني عليه اسم الامير او تعرض ابي العشار له بالاذى .. كلها واشباهها ليست الا نتاج او اصداء للموقف الحقيقي وهو ضعف الامير على حرية الشاعر .

والمتنبي يعرف ان هذه الضغوط والمواقف لا تحقق الخير لشعره ولا الشهرة البعيدة له وهما كل طموحه ومنتهاى امانيه . ولذلك ظلت همته العالوية في صراع معها من اجل ذلك . وكان شعاره في علاقته بالملوك قوله :

وكل امرئ يولى الجميل محب وكل مكان ينبت العز طيب

ونعتقد ان المتنبي استطاع ان يفوز بنفسه وبشعره عن كل

ابتدال ورداءة بفضل شخصيته الصلبة التماسكة الاطراف وقوة اعتداده بنفسه وثباته على المبدأ .

وقد اتهم المتنبي مع الاسف في اعتداده بنفسه بالفلو وفي شعره بالكذب والمبالغة . ويبدو لنا ان الذين اتهموه بذلك قد اغفلوا محاكمته بمقاييس الشعر في ذلك العصر وبمفهوم البلاغة في ذلك العصر ، الى جانب سوء تصورهم أو نقص تصورهم لتجانب شخصيته .

قلما تخلو قصيدة من قصائد المتنبي لا يصور فيها - سواء في مقدمتها أو في بعض فصولها - ما يتحلى به من بعد الهمة وعلو النفس والتعرض للصعاب ومقارعة الخطوب ومنازلة الأعداء بما لا نظير له عند شاعر من شعراء العربية حتى ليمد ديوانه ملحمة فريدة في الأدب العربي لكثرة ما يبرق فيه من سيوف وتراكض فيه من خيول وتسييل فيه من دماء ويشار فيه من نقيع .

والملاحظ ان المتنبي ليس يبالي فقط في تصوير طموحه واقدامه بل لا يصور ذلك في الغالب الا وهو يتناول على الناس والملوك ولا يحلو له ذلك الا بدمهم جميعا لامتداح نفسه. والامثلة على ذلك كثيرة من شعره وخاصة مما قاله في صباه كقوله وقد قيل له وهو في المكتب ما احسن هذه الوفرة :

لا تحسن الوفرة حتى تسرى منشورة الظفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة يعلها من كل وافي السبال

وقال في صباه :

امط عنك تشبيهي بها وكأنه فما احد فوقه ولا احد مثلي
وذرتني واياه وطرفي وذابلي تكن واحداً يلقى الوري وانظرن فعلي

وقال في صباه ارتجالاً :

اي محل ارتضي اي عظيم اتفي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشجرة في مفرقي

وكقوله :

السيّ لعمرى قصد كل عجيبة كاني عجيب في عيون المعالبي
بأي بلاد لم اجرّ ذوابتي واي مكان لم تطأه ركابتي

وقال في صباه ايضا :

ان اكن معجبا فعجب عجيب لم تجد فوق نفسه من مزيد
انا ترب الندى ورب القوافي وسمام العدا وغيف الحسود

وقال ايضا :

اناصغرة الوادي اذا ما زوحت واذا نطقت فاننسي الجوزاء
يشيم الليالي ان تشكك ناقتي صدي بها افضى ام البيداء

وقال من قصيدة اخرى :

لتعلم مصر ومنم بالعراق ومن بالعواصم انسي الفتى
وانسي وقيت وانسي ابيت وانسي عتوت على من عتا
وما كل من قال قولا وفسى ولا كل من سيم خسفا ابي
ولا بد للقلب من آلة وراي يصدع صم الصفا
ومن يك قلب كقلبي له يشق الى العزّ قلب النوى
وكل طريق اتاه الفنى على قدر الرجل فيه الخطا

وقد اخذ الناس عليه من قديم تهوره وفضوله وشكوكوا في صحة دواعيه حتى قال بعض من شاهده : انه لم يكن فيه فروسية ، وانما كان سيف الدولة سلمه الى النخاسين والرواض بطلب ، فاستجرا على الركن والحضر ، فاما استعمال السلاح فلم يكن من عمله . وحتى انكر عليه بعضهم ان يكون شعره يصور حبة من رباطة جاشه وتقحمه للصعاب .

واعتماد المتنبي بشعره هو جزء لا يتجزأ من اعتداده بنفسه ، وهو

يبالغ فيه كذلك مبالغة لا يدانيه فيها احد وهو كذلك يمدح شعره بدم اشغال غيره من الشعراء لا يستثنى منهم احدا . وهو الذي يقول:

وفؤادي من الملوك وان كا ن لساني يسرى من الشعراء

وشبه شعره بالسيف فقال يخاطب سيف الدولة :

فلو قدر السنان على لسان لقال لك السنان كما القول

واهمية اشعاره في نفسه انها على حد قوله :

بذي الفلوة من انشادها ضرر كما تضر رياح الورد بالجمل

وقال :

لا تجسر الفصحاء تشد ههنا بيتا ولكني الهزير الباسل
ما نال اهل الجاهلية كلهم شعري ولا سمعت بسحري بابل
واذا اتكذمت من ناقص فهي الشهادة لي باني كامل
من لي بفهم اهيل عصر ينمي ان يحسب الهندي فيهم بابل

وله ايضا :

وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدنا
.. اجزني اذا انشدت شعرا فانما بشعري اناك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي فانني انا الطائر المحلي والاخر الصدى

وقال كذلك : ومن الناس من يجوز عليه

شعراء كأنها الخاز باز

وقال :

وما قلت من شعر تكاد بيوتها اذا كتبت يبيض من نورها الحجر

وما ذكرت المبالغة او الفلو في كتب النقد الا وبرز امثلتها من شعر المتنبي والمبالغة هي في الحقيقة الصفة الغالبة في البلاغة عند العرب . وكانت - اي المبالغة - محور النظر في الشعر العربي طيلة قرون عديدة ولا تزال من عمود الشعر حتى في بعض الحركات الشعرية الحديثة وقد ذهب النقاد في تفصيل الكلام في الاغراق والفلو او الافراط مذاهب شتى . وكلهم متفقون على ان المبالغة لازمة من اللوازم الفنية في الشعر . واحسن ما وجدنا تفصيلا في ذلك فصل لحازم القرطاجني يقول فيه : « لا يخلو الشيء المقصود منه او ذمه من أن يوصف بها يكون فيه واجبا او ممكنا او ممتنعا او مستحيلا . والوصف بالمستحيل الفحش ما يمكن ان يقع فيه جاهل او غافل في هذه الصناعة . والامتنع قد يقع في الكلام الا ان ذلك لا يستتاع الا على جهة المجاز .. فان العلماء بصناعة البلاغة متفقون على ان ما ادى الى الاحالة قبيح . وقد خالف في هذا جماعة ممن لا تحقيق عنده في هذه الصناعة .. فاستحسنوا في البلاغة ما خرج عن حد الحقيقة الى جيز الاستحالة .

« وانما جرى اللفظ على كثير من الناس في هذا حيث لم يفروا بين الوصف الذي لا يخرج عن حد الامكان وان لم يثبت وقوعه وبين الخارج الى جيز الاستحالة . وغلظهم في ذلك ابيات وقعت فيها مبالغات خفيت عليهم فيها جهات الامكان فظنوا انها من الممتنعة او المستحيلة .

ومثل ذلك من المبالغات التي يمكن ان تتصور لها حقيقة وان تصرف الى جهة الامكان وان كان مما يستندر ووقع مثله قول المتنبي :

وانى اهتدى هذا الرسول بارضه وما سكنت مذسرت فيها القسايل
ومن اي ماء كان يسقى جياده وما تصفو من مزج النداء المناهل

فهذا مستساغ مقبول من حيث يمكن ان نتصور له حقيقة وان لم تكن واقعة اذ كانت كثرة الجيوش لا حد لها ومتى قدرت الزيادة في مقدار منها وان كثر امكنت .. فآراد المبالغة في جيش ممدوحه فجعله بالغا الى هذا المقدار .. »

ويقول حازم بعد ذلك : « ولا يلزم أبا الطيب أن يكون صادفافي ذلك ، لأن صناعة الشعر لها أن تستعمل الكذب إلا أنها لا تعدى الممكن من ذلك أو المنتع إلى المستحيل » .

ويشبه رأي حازم في فضية الكذب في الشعر أو المبالغة المفرطة رأي فداهم بن جعفر وسائر نقاد القرن الثالث والرابع ولابن رشيدى رأي قريب من ذلك إلا أنه يقول : « ومن الناس من يرى أن فضيلة الشاعر إنما هي في معرفته بوجوه الإغراق والقلو ولا أرى ذلك إلا محالاً لمخالفته الحقيقة وخروجه عن الواجب والمتعارف » ويروي قول بعض النقاد : خير الكلام الحقائق فإنا لم نكن فما فاربها وناسبها » .

وبعد تاريخ النقد الأدبي العربي وفير العربي انصارا وخصوما لهذه القضية المعروفة « بأعذب الشعر أكذب » . والملاحظ أن النقاد القدامى ومنهم حازم وفداهم وابن رشيدى الذين ذكرواهم يحتكمون في هذه القضية إلى المنطق العلمي ، فرغم تجاوزهم للناحية الخلفية في فضية الصدق والكذب في الشعر إلا أنهم نسكوا بالمنطق الصوري الارسطاطيليسي مع اختلافهم في مدى استحسان المبالغة المنتعنة .

ومع ذلك فنجد ناقداً مثل العكبري يعيب على المتنبي هذا النوع من المبالغات ويقول وقد شرح قوله بمدح سيف الدولة :
شرق الجو بالفجار إذا سار علي بن أحمد التمام

« .. وهذا من حماقاته المعروفة ولا بد نه في كل نصيدة من مثل هذا » .

ونعتقد أن ابن جنى كان اصح نظراً للشعر من العكبري ومن ينحو نحوه في مؤاخذة المتنبي بالقلو والتناقض . فقد علق على ابيات للمتنبي قالها في لعبة تدور على لولب ، أدبرت فسقطت عند بدر بن عمار وهي :

ما نفلت في مئسفة فدما ولا اشكت من دوارها أنا
لم أر شخصاً من قبل رؤيتها يفعل أفعالها وما عزمها
فلا تلمها على تواقفها أطربها أن رأسك ميتسما

قال ابن جنى: « هذا البيت يناقض الاول لانه وصفها بانها لا تشاء ولا تحس بالأم ، ثم جعلها تضطرب لابتسام المدوح وليس يعيب في صناعة الشعر لانه مبني على المحال » .

ولا شك أن عرض المبالغة في الشعر على مقياس الممكن والمنتع والمستحيل أمر يفغل ناحية هامة في نقد الشعر وهي انفعال السامع أو قبوله للمبالغة ، بدون المرور بعملية تفكير علمي أو منطقي أو حتى بحث عن مجرد وجود خارجي للصورة المبالغ فيها ، بل المدار هو الاستشارة التي يحدنها الشاعر بهذا القلو أو النخيل الجامع ومدى تقبل النفس أو الذوق لها ، وبهذا الاعتبار يمكن أن نستنفذ كثيراً من مبالغات المتنبي من مآخذ البلاغيين القدامى بل وحتى بعض النقاد المحدثين من انصار التعبير الصادق عن الشعور الصادق في الشعر .

ويتصل بهذه القضية مفهوم البلاغة في عصر المتنبي . وهو مفهوم متوارث ولم يتغير كثيراً حتى بعد عصر المتنبي . ذكره عبدالكريم الهشيلي القيرواني في كتابه المنتع في علم الشعر وعمله قال : « قالوا حسن البلاغة أن يصور الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق . قال : ومنهم من يعيب ذلك المعنى ويعدده اسهاباً وآخر يعده نفاقاً » بمعنى أن أكثر النقاد في تعريف البلاغة بالقدرة على التصرف في الكلام للتأثير على السامع في اتجاه ذم الشيء أو مدحه . ولهذا اكتسب الشاعر صفة خطيرة في مجتمعه وشبه بالساحر والكاهن والنبي لقوة تأثيره بالقوة التخيلية لا بالقوة الاقناعية أو الخطابية كما يقول حازم القرطاجني .

والطريف أننا نجد المتنبي يدرك أمر الصدق والكذب في السعر على وجه صحيح ويأبى إلا أن يفصل بين أنساع الحقيقية للشاعر أزاء الممدوح وبين شعره ، ويجعل الرابطة الوحيدة بينهما نسبة محضة حتى لا يعجم الشاعر في موقف اخلافي أو سياسي بالضرورة ونستنج ذلك في الحقيقة من دوله يعاب سيف الدولة :

حنانيك مسؤولاً وليسك داعياً

وحسبي موهوباً وحسبك واهباً

أهذا جزاء الصدق أن كنت صادفياً

أهذا جزاء الكذب أن كنت كاذباً

ومع ذلك فقد صور بعض الباحثين المحدثين من عرب ومستشرقين المتنبي في صورة أفاة كبير يعمل لافنة كداب من الطراز الحفير جما اخلافيًا واجتماعياً . وهذا تعري تجن كبير على علم من اعلام ادبنا القديم وجهل فادح بماليدنا النقدية . وصدق المتنبي حين قال :

وكم من غائب فولاً صحيحاً وآنته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذان منه على قدر القرائع والعلوم

والمبالغة وإن كانت من ركائز الكلام عند العرب أو من صفات العرب إلا أنها عند المتنبي من الصفات الغائبة بنفسه وبشعره فضلاً عن عروبيته الخالصة . ولا شك أن مزاج أبي الطيب الحاد وطبيعته الهيمنة وهمنه البعيدة وضوحه الشديد ، كلها عوامل دفعت به دفعا إلى تطلب القلو والتطرف في المدح والهجاء . كما دفع به هذا التكوين النفسي بالذات إلى التصرف في التعبير وفي اللغة والاشعاع والنحو بما لم يات به الاوائل طلباً للاعجاز . وما ظاهرة استعمال المصغير في شعره إلا صورة من صور الميل في نفسه للتعبير عن الأشياء أو وصفها بشكل مبالغ فيه تحفيرا أو تعظيما . وليس كما ذهب بعض النقاد بسبب ما في نفسه من احتقار للناس والاشياء أو كما قال آخر ناتسراً ببعض خصائص النفير لدى المتصونه ، وإن كانت هذه الأمور من بعض ما يلاحظ في شعره .

ونحن نعتقد أن الناس لم يكن ليصدوا بنوة المتنبي في الشعر فقط لبوغه باجماع النقاد مرتبة الاعجاز في البيان بل ولما اشتدل عليه شعره من حكم وامثال . وكانت الامثال آحدى مذاهب الكلام المستحسنه عند العرب . يقول حازم القرطاجني : « وللشعراء مذاهب فيما يتمدون ايقاعه في الجهات التي يعتمدون فيها القول من الانحاء المستحسنه في الكلام كالآوصاف والتشبيهات والحكم والتواريخ . فقل ما يشد من مستحسن الكلام عن هذه الانحاء الاربعة بشيء ، فمنهم من تشدد عنايته بالآوصاف كالبخري وبالتشبيه كابن المعتز وبالامثال كالمتنبي والتواريخ كابن دراج الفسطلي » .

ونحن نعتقد كذلك أن شخصية المتنبي كما عرفناها في مهابتها وفخامتها وعمقها لم تكن لتختار منحى للعول غير ذلك المنحى أو على الاصح لم يكن لها إلا أن تنطلق في اجواز الحكمة السماوية .

ولعل المتنبي انما ظل يؤثر في النفس العربية لهذا الجانب من شعره وهو الامثال . ولأن هذه الامثال على صورة من الايجاز المطابق لصورة البلاغة عنده ، فليس اشد ايجازاً من البيت ومن مصراع واحد منه ، فضلاً عن السلاسة والوزن والتوفير في شعر المتنبي ، مما يحقق روايتها وحفظها ، وذلك غاية الذاكرة العربية عموماً من بلاغة الكلام .

ولامر آخر هو أن الحكم والامثال تستهوي النفوس ولا تزال لدى الشعوب الأقل فالأقل حضارة اختيارها المفضل . والشعير العربي طالما ظل ينزع للفييات طالما بقيت الامثال مؤثرة في حياته كما لا يؤثر قانون طبيعي أو حقيقة علمية .

التتمة على الصفحة - ٧١ -

التراث الفلسطيني والطبقات

صدر حديثاً

تأليف

علم الفيلسوف

« غاية هذه الدراسة ، في الأساس ، مساهمتها في تكريس التراث الشعبي العربي الفلسطيني داخل نمو الثورة وتضاعفها .. وأداة الدراسة المركزية هي الامثال الشعبية الفلسطينية باعتبارها جزءاً أساسياً من التراث الشعبي الفلسطيني ... وهي تؤكد القدرة الفذة لمجتمعنا العربي الفلسطيني على الصمود والحيوية والنمو والتطور طالما هو محتفظ بتراثه الشعبي ، هذا التراث الذي تحاول الامبريالية والصهيونية ، متساندتين متلاحمتين ، قتله وتدميره ، انكاراً لوجود شعب فلسطيني .. ولذلك فإن كل احياء واثراء ونشر وتعميق وتحليل للتراث الشعبي الفلسطيني بكافة اشكاله والوانه هو دعم للثورة وتكريس لها ، كما انه اضاءة للمناقشة الفلسطينية ولحمة لها .. »

— من المقدمة —

منشورات دار الآداب

- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن ايوب : الوافي بالوفيات ج ٦ . تحقيق س . ديرينغ . دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٢ .
- الطباخ ، محمد رافع : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج ١ - المطبعة العلمية ، حلب ١٩٢٢ .
- ابن العديم ، كمال الدين عمر : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ١ . تحقيق الدكتور سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥١ .
- المتنبي : احمد بن الحسين : ديوان أبي الطيب المتنبي . صعدة الدكتور عبدالوهاب عزام ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٤ .
- ديوان أبي الطيب المتنبي — شرح أبي الحسن علي بن احمد الواحدي تحقيق فريدريك ديتريخ ، برلين ١٨٦١ .
- المترزي ، تقي الدين : المواعظ والامتنان في ذكر الخطط والاناير ج ٢ بولاق ، القاهرة ١٢٧٠ هـ .
- ابن وكيع ، الحسن بن علي : النصف من السارق والمسروق في شعر المتنبي — تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم (مخطوط) .

مظاهر العظمة والطموح في شعر المتنبي

— تمة المنشور على الصفحة ٢٨ —

ولامر اخر ظل المتنبي خالداً بفنه هو هذه النبوة الشاجية العالية في شعره . وهو امر تظن اليه حازم القرطاجني التونسي وذكره بتفصيل في كتابه منهاج البلاغ ، ومما يقوله : « ان احوال جمهور الناس والمترفين لسماح الكلام حاتمة حول ما ينعم ويشجو » قال المتنبي :

انما تنجح المقالة في المرء اذا صادفت هوى في الفؤاد

وبعد ان عدد حازم الاحوال المستطابة او السارة قال : « والاحوال الشاجية منها احوال اعقبت فيها الوحشة من الانس والكدر من الصفاء نحو اعقاب النعم بالحبيب بالتالم لرفاهه واعقاب النعم بالشيبه بالتالم لرفاقها واعقاب النعم بالوطن المؤنس بالتالم لرفاقه واعقاب النعم بالزمن المسعد بالتالم لرفاقه . ومنها احوال كان الجور فيها وضع موضع العدل والاساءة موضع الاحسان فهي امور على غير ما يلائم ذا الفضل . وكثير ما كان ابو الطيب المتنبي يقصد ههنا الضرب واللي قبله من الشاجية فكان ذلك مما حسن موقعه من النفوس اذ اكثر الناس لا يخلو عن بعض هذه الاحوال » .

ورغم هذه النعمة الشاجية فان حكم المتنبي جاءت صورة من نفسه خالية من كل دموع للذل والانخدال والتواكل والتشاؤم . وسيظل ابو الطيب المتنبي في نظر الاجيال ، رغم جوانب القلو البلاغية في شعره رمزا ادبياً رائعاً للاعتداد العربي بالنفس وللهمة العربية وللإباء العربي .

أتونس